في تلقائيته غير المنظمة، فإن رد فعل كل من الجماهير والنظام، واسرائيل كان أكبر من الفعل... كان رداً نابعاً من المخزون، من الغضب (عند الجماهير) ومن الخوف (عند النظام) ومن الدهشة الحائقة (عند اسرائيل). لذلك فاذا أردنا أن نتابع ما حدث، والذي كانت بدايته مجرد توزيع منشور صغير، يتوجب علينا أن نرجع إلى شهر أو أكثر قليلاً، قبل افتتاح المعرض.

ففي منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) تقريباً، عرفت دور النشر اللبنانية، ان ثمة معرضاً للكتاب، فاجتمع مسؤولو عدد من دور النشر التقدمية، وهي دور: الفارابي وابن خلدون والكلمة وابن رشد والدراسات العربية والفتى العربي والوحدة، وتدارسوا الموضوع، وقرروا ارسال «تيلكس» إلى صلاح عبدالصبور بوصفه المشرف على المعرض، يطلبون منه معرفة امكانية الاشتراك في المعرض. كان المشرفون على هذه الدور يرغبون، حقيقة، في حضور المعرض، وفي التواصل مع الجمهور المصري، وفي فتح اسواق لهم في مصر لا تمر فيها كتبهم من خلال وسطاء السوق السوداء للكتاب؛ حيث يبلغ ثمن الكتاب المطبوع في بيروت أربعة أضعاف ثمنه هناك في القاهرة.

إذن، قررت دور النشر «جس نبض» الهيئة المشرفة على المعرض. وكانت الاجابة بأسرع مما يتوقع أحد. فقد أرسل صلاح عبدالصبور «تيلكس» يعلن فيه الموافقة الكاملة للهيئة المشرفة على اشتراك هذه الدور في المعرض، وزودها بـ «كتالوج» يتضمن شروط المعرض والوقت المحدد للاشتراك.

كان ثمة شرط يبدو غير واضح في «الكتالوج». فقد كانت فيه فقرة تقول: «ان كل الكتب التي تعرض في المعرض لن تتعرض لها الرقابة بأي شكل من الأشكال الا في حدود القانون والاخلاق». وقررت هذه الدور ارسال مندوب لها إلى القاهرة ليستوضح من صلاح عبدالصبور شخصياً، المقصود «بالقانون والأخلاق» وان يحضر معه الرد مكتوباً.

خلال ذلك كانت دور النشر تستعد وتجهز قوائم كتبها تمهيداً لشحنها للقاهرة، حيث قررت أن تشحن كتبها سوية، وأن تعرضها في جناح واحد متكامل.

وفي هذه الأثناء تفجرت أول أزمة من أزمات المعرض التي تتالت فيما بعد. فقد ماطلت الهيئة المشرفة في الاستجابة لطلب اسرائيل الاشتراك في المعرض، ثم رفضت طلبها، متعللة بأن الرد الاسرائيلي قد وصل بعد فوات الوقت المحدد.

لكن اسرائيل لم ترضخ. وتم اتصال مع الرئيس أنور السادات الذي أمر شخصياً بالسماح لاسرائيل بالاشتراك في المعرض مستجيباً لطلبها، حيث أنها احتجت بأن حظر اشتراكها يناقي نصوص اتفاقية كامب ديفيد وروحها بشأن تطبيع العلاقات.

وبدأت الاحداث تتسارع. فقد قررت دور النشر التي ذكرنا عدم الاشتراك في المعرض، بوجود اسرائيل. ويبدو أن القرار أتخذ على عجلة، وخوفاً من التورط في إشكال سياسي اذا عرضت هذه الدور كتبها في المكان والزمان نفسيهما اللذين تعرض فيهما اسرائيل.

لكن «دار العربي» في القاهرة، وهي امتداد تجاري لدار الفتى العربي، قررت الاشتراك في المعرض. هذا اضافة إلى أن لدار الفتى العربي فرعاً صغيراً في القاهرة.. ومعظم الكتب التي تتعامل بها دار العربي هي في الأساس من مطبوعات دار الفتى العربي، بالاضافة إلى بعض انتاجاتها الخاصة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد بادرت لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية من حزب التجمع، بتحرير منشور يدعو إلى مقاطعة المعرض، وهذه اللجنة يرأسها الكاتب والصحافي المصري صلاح عيسى، ويشترك في عضويتها حلمي شعراوي الباحث في الشؤون الافريقية.. وآخرون.

وفي يوم الافتتاح، ذهب صلاح عيسى وحلمي شعراوي إلى المعرض وبدأ بتوزيع المنشور، وتجاهل رجال الامن المكلفون بحفظ النظام حادثة توزيع المنشور واكتفوا بالمراقبة من بعيد.